أوراق إستراتيجية

توسيع "الجهاد": شبكة حزب الله الإسلامية السنية

بقلم بلال صعب وبروس ريدل؛ معهد بروكينغز؛ شباط 2007

سيطر سقوط العراق في حرب أهلية ونفوذ إيران المتنامي في الشرق الأوسط على مناقشات جماعة السياسة الخارجية في واشنطن. وقد رأى وفسر كثيرون هذه التطورات من خلال رؤية مشوهة لإنقسام متنامي بين المسلمين السنة والشيعة. وبالواقع، لقد كانت فكرة الصدع والإنشقاق داخل الشرق الأوسط– يعززه سفك الدماء الطائفي في العراق؛ الإفتقار لدعم مصر، الأردن، والعربية السعودية لحزب الله في حربه مع إسرائيل الصيف الماضي، وكذلك فهم القادة العرب السنة بأنّ هناك "هلالاً شيعياً" بقيادة إيران قد إمتد عبر المنطقة– سائدة في واشنطن حيث كان كثيرون قد نظروا الى الأحداث في لبنان من خلال تلك الرؤية المشوهة نفسها.

فالأزمة في لبنان يُنظر إليها من الخارج بصفتها صدام طائفي تعمل على إقحام إئتلاف حاكم بقيادة السنة بتوجيه من رئيس الوزراء فؤاد السنيورة، المدعوم من قِبَل الولايات المتّحدة وفرنسا، ضد التحالف المعارض بقيادة الشيعة بظل قيادة حزب الله، مدعوماً من قِبَل إيران وسوريا. إنّ النظرة للأزمة اللبنانية على أنها بين السنة والشيعة يعني سوء فهم لصراع لبناني متجذر بنزعات وتوجهات تاريخية على قدر كبير من التعقيد. ومع معرفة الطبيعة المتعددة الطوائف للعلاقات المجتمعية الداخلية وللتحالفات السياسية التي تمتع بها لبنان على إمتداد تاريخه، فإنّ إنهياراً كبيراً لإئتلافين منافسين يكشف، بشكل لا يثير الدهشة، عن أنّ هذه التحالفات لا تشمل داعمين من كل الطوائف ومسيرات الحياة السياسية فقط، وإنما يكشف عن أنها تعتمد أيضاً، وبشكل أساسي، على التغاير والإختلاف المجتمعي للإستمرار ومواصلة أهدافها النهائية.

أما في لبنان، فلم يقم أي ممثل بتحدي وتقويض فكرة الإنقسام السني– الشيعي، وبقوة، أكثر مما فعل حزب الله. فهو يفعل ذلك، أولاً، عن طريق السعي لإبراز نفسه كقائد لحركة مقاومة إسلامية ذات قاعدة واسعة ضد الولايات المتّحدة وحلفائها، ليس فقط في لبنان، وإنما على إمتداد الشرق الأوسط. إنّ نجاح حزب الله في حرب الصيف الماضي مع إسرائيل غذى طموحاته كما غذى صورته كمصدر تحدي بارز ودائم للولايات المتّحدة وإسرائيل.

وللتعامل بفعالية مع التحدي الذي يشكله حزب الله، فإنّ الولايات المتّحدة ستكون بحاجة للإدراك والإعتراف بأنّ "حزب الله" هو أكثر من منظمة شيعية إجتماعية– سياسية تملك إمكانات عسكرية وإرهابية مهمة. إنّ واشنطن بحاجة لصناعة سياسة جديدة مُصمّمة لتقويض صورة حزب الله المنتشرة ومكافحة مشروعه "بقيادة المقاومة في الشرق الأوسط ضد كل من الولايات المتّحدة وإسرائيل"، وذلك بإستخدام وسائل ديبلوماسية.

حزب الله: المنظمة "المتعددة الأوجه" الشيعية

يمتلك حزب الله بيئة تنظيمية معقدة تسمح له بالعمل براحة ككيانات متعددة: الأول، كحزب سياسي داخلي مشروع وممثل في الجسم السياسي اللبناني، الثاني، كممثل إجتماعي يملك مقاعد في المجالس البلدية اللبنانية يقوم بتوفير خدمات إجتماعية للمجتمع الشيعي اللبناني، وثالثاً، كمنظمة شبه عسكرية مصمّمة على تحرير الأراضي اللبنانية المفقودة التي لا تزال تحت الإحتلال الإسرائيلي وردع هجوم خارجي متوقع. ومن ضمن الأخيرة، يحافظ حزب الله أيضاً على قدرة إدارة عمليات إرهابية– بالتنسيق مع وكالات الإستخبارات الخارجية الإيرانية– في المنطقة وخارجها إذا ما شعر بأنه مهدد.

وبعيداً عن كونه ممثل ذا بعد واحد، يُعتبر حزب الله منظمة "متعددة الأوجه"، الذي في رده على ظروف الأزمة التي يراها، يتأرجح بين تكتيكات العنف المتطرف وتكتيكات السلم البراغماتي لضمان بقائه. فأجزاء وأعضاء حزب الله العديدة تعمل بشكل موحد لتثبيته وللمحافظة على عملياته الأساسية مستمرة ولتجعله، في النهاية، قادراً على إعادة الإنتاج.

ومع ذلك، وبرغم تكيفه الظاهر وطبيعته المتعددة الأوجه، يعتبر حزب الله حركة إسلامية شيعية تتبع وتمارس إيديولوجية ولاية الفقيه الإيرانية (حكم رجل القانون). ومع إعتقاد القائد الأعلى الإيرانية آية الله روح اله الخميني في منتصف الستينات، عندما كان في المنفى في العراق، بمفهوم ولاية الفقيه وتطبيقه لها في العام 1979 (والتي لا تزال مطبقة من قِبَل القائد الأعلى الحالي آية الله الخامنئي)، لا يزال هذا الإعتقاد العصب الحيوي المؤثر في وظائف حزب الله الدينية– السياسية المتّحدة. إنّ كلمات أمين عام حزب الله حسن نصر الله، كما هي موثقة من قِبَل الباحث بشؤون حزب الله، نزار حمزة، تبرهن على علاقة الحزب الشيعي بولاية الفقيه: "إنّ العمود الفقري لحزب الله هو ولاية الفقيه. إنتزعوا ولاية الفقيه، ويصبح حزب الله جثة هامدة، وحتى مقسمة".

إنّ سبب وجود حزب الله، وسيبقى كذلك، هو السعي لتأسيس لنظام إسلامي في لبنان على أساس توافقي. وفي حين كان قد تقبّل منذ مدة طويلة حقائق لبنان العلماني المتعدد الطوائف بتلطيفه إستراتيجيته الثورية، فإنّ حزب الله لم يتخلَ مطلقاً عن رغبته، على الأقل على الورق، برؤية لبنان محكوماً وفق مفاهيم إسلامية. إذ لا تزال الرؤية العالمية لحزب الله متجذرة في النظام والمبادئ الإلهية كما أنشأها الخميني. كما أنّ قاعدته الجماهيرية هي شيعية بشكل رئيسي (رغم أنها ليست كذلك حصرياً).

إنّ ولاء حزب الله التام لولاية الفقيه (وهي نظرية معادية للإسلام السني) لم تمنعه من تشكيل تحالفات مع الحركات الإسلامية السنية. فحماس والجهاد الإسلامي الفلسطيني هما مثالان جديران بالذكر لحركات كهذه. فكلاهما تتلقيان دعماً متزايداً– دعائياً وعملياً– من حزب الله في العقد الأخير.

وفي حين أنّ بإمكان المرء الإدعاء بأنّ التحالف الإستراتيجي لهاتين الحركتين مع إيران جعل الأمر أسهل على حزب الله لجهة إنشاء شراكة معهما، فإنّ حزب الله كان ناجحاً في الوصول والإمتداد الى مجموعات إسلامية سنية أخرى في لبنان، والتي لا ترفض بشكل أساسي ولاية الفقيه فقط، وإنما تعارض بشكل معاكس تماماً معتقدات حزب الله ورؤاه العالمية. فمن هي هذه الحركات الإسلامية اللبنانية السنية وكيف تمكن حزب الله من تشكيل روابط معها؟ وما هي تعقيدات العلاقات والإتصالات الإسلامية السنية لحزب الله بالنسبة للسياسة الأميركية؟

الجاذبية الإسلامية السنية لحزب الله

إنّ إنجازات حزب الله العسكرية ضد إسرائيل منذ العام 1982، معارضته للطموحات الأميركية– الصهيونية في الشرق الأوسط، وسمعته كحزب سياسي غير فاسد وساعٍ للعدالة الإجتماعية في الوطن، كل ذلك سمح له بنشر صورة أميه كمدافع عن الأمة وكبطل للجماهير المحرومة حول العالم.

إنّ هذه الصورية القوية، النظيفة، الفاضلة والمستقيمة، كما نشرها حزب الله، تجتذب العالم العربي، عموماً، الذي تُعتبر أكثريته معارضة بشدة، بحسب إستطلاعات للرأي العام موثوق بها، لسياسات ودور أميركا في الشرق الأوسط (مع إرتفاع المشاعر المعادية لأميركا عقب حرب العراق في العام 2003)، والتي هي ناقمة بسبب ظروفها الإجتماعية– السياسية البائسة التي تعاني منها في بلدانها، والتي تشعر بالإذلال من وضع إسرائيل المهيمن بشكل ظاهر وتفوقها العسكري الحقيقي في المنطقة وأملها بحصول تغيير مع شعور مشترك بإنتهاك عزتها وشرفها.

لكن بعيداً عن تحديه الصلب للولايات المتّحدة وإسرائيل، تعتبر رؤية حزب الله وتناوله لمسألة فلسطين عموماً والقدس خصوصاً هي التي جعلته، تحديداً، يفوز بقلوب وعقول السنة والحركات الإسلامية السنية. إنّ دعم حزب الله الوجداني والعملاني للقضية الفلسطينية، وهي قضية كبيرة وعظيمة الشأن بالنسبة لكل المسلمين، ساعد بالتقليل من لهجة الإنقسام العقائدي الذي يعود تاريخه الى قرون بعيدة بين السنة والشيعة.

أما وجدانياً، فإنّ المظهر الذي يقدمه حزب الله كل عام (والذي يُترجم عادة في مسيرات وعروضات عسكرية له في ضواحي بيروت الجنوبية) مشابه لذلك الذي للحركات الإسلامية السنية. فيوم القدس العالمي ساعد في الواقع على خلق رابط مشترك بين حزب الله والسنة العرب حول مسألة القدس، كما أنّ حركات إسلامية سنية كحماس والجهاد الإسلامي الفلسطيني كانت تشترك مع حزب الله في مواكب يوم القدس العالمي (المناسبة التي تم إقتراحها لأول مرة من قِبَل الخميني، وهي في إيران في كل سنة هجرية في آخر جمعة من شهر رمضان).

وعلى المستوى العملاني، يوجد هناك جسم مستقل للمعلومات يشهد على المشاركة الصلبة لحزب الله في الساحة الفلسطينية. وتتضمن الأمثلة عن تورط كهذا، تدريب وتمويل حزب الله للمنظمات الفلسطينية المسلحة (بإستخدام الأموال الآتية من المنح الإيرانية أو المؤسسات الخيرية التي يديرها مكتب الخامنئي)، وتسلله الى إسرائيل وتجنيده لعملاء في الداخل لأهداف إستخبارية وتنفيذ عمليات. وقد هدفت هذه الأنشطة، والى حد كبير، الى المحافظة على وضع حزب الله الرادع وتعزيزه مقابل إسرائيل في الوقت الذي يقوم فيه بتقديم المساعدة أيضاً للفلسطينيين في نضالهم لإلحاق الهزيمة بإسرائيل.

أما في الداخل (لبنان)، فإنّ إمتداح حزب الله لنفسه بعد إنتصاره على إسرائيل في حرب صيف 2006 وتصميمه على إحباط الخطة الأميركية– الفرنسية المعروفة بخلق "شرق أوسط جديد" (والتي هي بنظر حزب الله تخدم المصالح الإسرائيلية– الغربية وتجرد المسلمين العرب من حقوقهم)، شجع الحركات اللبنانية الشيعية على طرق باب الحزب الشيعي. وعقب الحرب، نشأت، وبسرعة، رؤيتان إستقطابيتان للبنان، كما يراها الأخصام والأعداء. فبالنسبة لحزب الله، هناك "ثقافة الهزيمة والتكيف" (التي يؤيدها إئتلاف 14 آذار الحاكم والمحددة بالإستعداد للإستسلام لإسرائيل والإنحناء أمام النظام الدولي الذي تهيمن عليه الولايات المتّحدة)، وهناك "ثقافة المقاومة والكرامة" (التي يتقدمها الحزب الشيعي والمحددة من خلال المواجهة مع إسرائيل للدفاع عن لبنان والقضية الفلسطينية ورفض "الطموحات الإمبريالية الأميركية").

وكونها مجبرة على الإختيار بين المفهومين المتنافسين، إختارت الحركات الإسلامية السنية القوية الرؤية الثانية. فحيث أن لهذه الحركات "تاريخ مقاوم" ضد إسرائيل، وحيث أنّ المشهد السياسي الداخلي ما بعد الحرب لم يترك مجالاً كبيراً "لطريق ثالث" مستقل، فقد كان من الأسهل بالنسبة لها إختيار الشراكة مع حزب الله.

الإمتداد العملاني لحزب الله

ولتعزيز جاذبيته السياسية والإسلامية، عملانياً، وللوصول بفعالية الى نظرائه الإسلاميين، أضاف حزب الله عضواً الى بنيته التنظيمية في أوائل الثمانينات يُدعى "التيار الإسلامي". فالتيار الإسلامي، الذي كان أول من إكتشفه هو نزار حمزة، يمثل شبكة تنسيق ذات هيكلية طليقة مُصممة لكي تجذب الداعمين والمتعاطفين الذين يشاركون حزب الله أهدافه السياسية و"ثقافة المقاومة والكرامة".

ومن خلال التيار الإسلامي، يوفر حزب الله لداعميه وللمتدينين بدينه إطار عمل وحدوي غير ممركز يحافظ على إبقاء خصوصيتهم الإيديولوجية مستقلة عن الحزب الشيعي. فمن دون التدخل في تفاصيلهم الإيديولوجية والتنظيمية، كان حزب الله قادراً على جذب (والتنسيق مع) الداعمين الإسلاميين السنة، وكذلك مع مظلة من التنظيمات التي إما ليس لها علاقة بعقيدة ولاية الفقيه، أو أنها ترفضها تماماً.

وعلى رأس قائمة هؤلاء الداعمين في فلسطين، هناك الجهاد الإسلامي الفلسطيني وحماس. أما في لبنان، فهناك "جبهة العمل الإسلامي" اليوم، وهي منظمة مظلة إسلامية سنية يقودها فتحي يكن، الممثل الإسلامي السني الأكثر صلة بالموضوع، والذي يتمتع بعلاقات عمل وطنية مع حزب الله.

علاقة حزب الله مع الإسلاميين اللبنانيين السنة

إنّ فتحي يكن داعية وباحث إسلامي محنك يبلغ من العمر 73 عاماً، من مدينة طرابلس الشمالية، العاصمة الثانية للبنان. وهو تلميذ تابع للمفكر الإسلامي المصري سيد قطب، ومؤمن بالكتابات الثورية لـــ "روسو"، "فوليتير" و"ماركس/ إنجلز"، ومعجب بالتعاليم الفلسفية لأسامة بن لادن وأيمن الظواهري (رغم أنه يعارض بالكامل إستراتيجيتهما المسلحة). كما أنّ يكن شخصية كاريزماتية، مؤثرة، إسلامية محترمة جداً في لبنان والمنطقة. ويُنسب إليه خطأ بأنه مؤسس الجماعة الإسلامية (وهي جماعة إسلامية سنية أُسست في العام 1964 من قِبَل شبان أعضاء في منظمة "عباد الرحمن"). إلا أنه يمثل، على كل حال، الأب لهذه الجماعة والإيديولوجي الرئيس فيها، وهو يعارض الإيديولوجيتين العلمانية والشيوعية، ويعتبر الإسلام أساس النظام الإجتماعي– السياسي.

وفي بداية الحرب العربية– الإسرائيلية عام 1967، إنضم يكن الى سعيد الحوا من الإخوان المسلمين في سوريا بتأييده الجهاد ضد الغرب وإسرائيل. والى جانب العضو الزميل القاضي فيصل المولوي، شارك يكن في قيادة "الجماعة الإسلامية" خلال الحرب الأهلية اللبنانية وحارب الى جانب الإئتلاف اليساري– الإسلامي في طرابلس. وفي العام 1992، إنفصل عن قيادة الجماعة الإسلامية بسبب خلافات عقائدية ودخل البرلمان اللبناني الأول ما بعد الحرب. وعلى إمتداد التسعينات، كرّس نفسه للحياة السياسية والبرلمانية متزعماً كتلة من ثلاث نواب إسلاميين داخل البرلمان اللبناني. ومن العام 2000 الى 2005، حافظ يكن على عدم البروز جداً محاولاً إعادة التواصل مع أصدقائه الإسلاميين القدامى وتطوير علاقاته مع عدد من الحركات الإسلامية عبر المنطقة، أهمها مع الإخوان المسلمين السوريين والأتراك. أما اليوم،

فيُعتبر يكن حلقة الوصل المستقلة للنظام السوري مع الإخوان المسلمين السوريين (أو "إذهب للرجل" متى كانت دمشق راغبة بالتفاوض غير المباشر مع الإخوان المسلمين)، مما يسمح له ليس فقط بالتمتع بعلاقات طيبة مع دمشق، وإنما بعلاقات ممتازة مع طهران وأنقرة أيضاً.

وفي آب 2006، شكل يكن "جبهة العمل الإسلامي"، وهي منظمة– مظلة تجمع الجماعات والمنظمات اللبنانية السنية معاً من كل أطراف البلاد بهدف "ملء الثغرة الموجودة"، و"خلق جسم مسؤول للسنة في لبنان" والذي "سيعمل بالتعاون مع هيئات مسؤولة أخرى". ومن هذه الجماعات حركة التوحيد الإسلامي، بقيادة الأمين العام الشيخ بلال شعبان ورئيس مجلس القيادة الشيخ هاشم منقارة؛ مجموعة إسلام بلا حدود، بقيادة رمزي ديشوم؛ بالإضافة الى عدد من أفراد الجماعة الإسلامية، مثل عبد الله الترياقي الذي إنفصل عن القيادة وإختار الإنضمام الى صفوف فتحي يكن.

وقد لخص يكن السبب الأساسي لإنشاء جبهته وذلك في مؤتمر عقد في بيروت في آب 2006: "إنشاء الله سوف تولد جبهة العمل الإسلامي في ظروف غير مسبوقة، وسط هجوم أميركي– صهيوني حاقد ووحشي على لبنان، فلسطين والعراق. وهذا الواقع يحفز الجبهة على تحمل مسؤولية ومهمات إستثنائية غير مسبوقة في أدائها، دورها وجهوزيتها، بحيث تكون جبهة مميزة بسمة جهادية... نحن نعتبر أنفسنا بأننا إتخذنا خطوة عملانية في حقل العمل الجهادي، بعيداً عن الإعلام. كما نعمل بالتنسيق مع الإخوة المهتمين في كل المجالات، خاصة في العمل الجهادي".

إن الهيئات التي تشكل جبهة العمل الإسلامي، هي الهيئات الإسلامية السنية الأكبر والأكثر تأثيراً في المشهد السياسي اللبناني. وتعتبر حركة التوحيد الإسلامي، التي أسسها في العام 1982 الشيخ سعيد شعبان، وهو عضو سابق في الجماعة الإسلامية، الحركة الإسلامية الأهم في شمال لبنان. فعقب الغزو الإسرائيلي عام 1982 للبنان، كان شعبان، وهو مؤمن بشدة بالشريعة الإسلامية، قادراً على فرض سلطته على مدينة طرابلس على حساب النفوذ السوري. وبعد ثلاث سنوات، دخل الجيش السوري طرابلس لكبح إنتشار ظاهرة العسكرة الإسلامية وسحق ميليشيا شعبان. أما اليوم، فيرأس الحركة التي أعاد تسلحها إبنه بلال شعبان.

ويتمتع حزب الله بعلاقات طيبة مع جبهة العمل الإسلامي. وبالواقع، تعود علاقة حزب الله الشيعي مع هؤلاء الممثلين الإسلاميين السنة الى الحرب الأهلية، ولاحقاً الى الغزو الإسرائيلي عام 1982 وما أعقبه من إحتلال للبنان. وخلال تلك الفترة، قامت ميليشيات سنية عديدة، بما فيها حركة التوحيد الإسلامي والجماعة الإسلامية، بالقتال الى جانب حزب الله ضد الميليشيات المسيحية المسلحة وقوات الإحتلال الإسرائيلية. ومع أنّ المقاتلين السنة لم يكونوا ينتمون الى البنية التنظيمية لحزب الله، فقد تمكنوا، لوجستياً وعسكرياً، من التنسيق مع نظرائهم الشيعة من خلال الوحدة غير المركزية لحزب الله، أي التيار الإسلامي.

ومؤخراً جداً، إدعى الشيخ فيصل المولوي وإبراهيم المصري، أمين عام ونائب رئيس الجماعة الإسلامية، على التوالي، بأنّ حركتهما شاركت في حرب صيف 2006 بين حزب الله وإسرائيل عن طريق "الوقوف كتفاً الى كتف" بالحرب مع حزب الله في منطقة مزارع شبعا. وأكد حزب الله تصريحات المولوي والمصري بعد أسبوع من إعلانيهما المنفصلين، وذلك بالتصريح:" لقد كان معنا مجموعات قتالية سنية، لو كشفنا عنها لصدمتكم جميعاً".

وكان لحزب الله إجتماعان على مستوى رفيع مع فتحي يكن منذ تشكيل جبهة العمل الإسلامي (الى جانب إجتماعات أخرى متعددة بين الحزب الشيعي وقادة حركة التوحيد الإسلامي والجماعة الإسلامية). وفي الأسبوع الثاني من كانون الثاني 2007، جلس أمين عام حزب الله حسن نصر الله، الذي يدعو في جلساته الخاصة جبهة العمل الإسلامي بـــ "شعاع الضوء"، مع فتحي يكن لمدة 4 ساعات في الضاحية الجنوبية (مركز قيادة حزب الله) وتوافق معه على مسألتين شديدتي الأهمية: الحاجة الى تعزيز تعاونهما في جبهة المعارضة الموحدة ضد حكومة فؤاد السنيورة وواجبهما الأخلاقي في تقويض وإزالة التوترات السنية– الشيعية في لبنان لأجل "إحباط المشروع الصهيوني– الأميركي

بتحويل لبنان الى عراق". كما أن يكن يشارك نصر الله أيضاً القناعة القوية بأنّ الولايات المتّحدة، اليوم، هي "في حالة من الفوضى والضعف في المنطقة".

وفي 3 شباط، إلتقى نصر الله ويكن، مرة أخرى، وبعيداً عن العيون، للبحث بشكل أعمق في طبيعة مشروعهما التعاوني. أما الهدف، فكان وضع الأسس لجبهة موحدة ضد الأعداء في الداخل والخارج، الذي يمكنه أن يخدم "كنموذج لقوى مقاومة أخرى تعمل إمتداداً من العراق الى فلسطين ومن مصر الى سوريا". "لقد حان الآن زمن الوحدة"، كما أكد الرجلان، "لم يعد الأمر حلماً، إنه واقع".

أما ما إذا كانت جبهة كهذه سوف تُترجم في النهاية الى تحالف سياسي– عسكري رسمي، فإنّ ذلك يبقى رهناً بالمستقبل. ففي المحادثات، تمت مناقشة مسألة التدريب العسكري وتمويل جبهة العمل الإسلامي من قِبَل حزب الله. وحتى الآن، فإنّ الإسلامي الفخور بنفسه والذي طالما قدر إستقلاليته وحارب لأجلها (إذ رفض، حتى الآن، الأموال من النظام السوري ومن حزب الله)، لم يقبل مساعدة مالية سوى من أصدقائه الإسلاميين من الإخوان المسلمين في تركيا.

التعقيدات بالنسبة للسياسة الأميركية

أما اليوم، فإنّ التحدي الذي يشكله حزب الله للمصالح الأميركية في لبنان والمشرق هو تحدي متعدد الأبعاد. فالمنظمة حققت مقداراً من النجاح والدعم في لبنان وعلى إمتداد المنطقة مما يجعلها قوة يجب التفاهم معها. إذ لا يمكن تمني زوالها، كما لا يمكن حصرها للتعامل معها، بالخالص، كمنظمة ذات قدرات عسكرية وإرهابية هامة. بالإضافة الى ذلك، لا يمكن إعتبارها، وببساطة، كأداة إيرانية ضد الغرب في لعبة إقليمية.

إنّ تصميم حزب الله على إجتياز الإنقسام السني– الشيعي ثابت في طموحاته كما هو ثابت لدى إيران. فحزب الله وإيران لا يناضلان ليكونا ثورتان شيعيتان خالصتان، حيث أنّ ذلك سيؤدي الى تهميش رسالتيهما في الشرق الأوسط وحول العالم؛ فلطالما أوحيا، دوماً، بأنهما صوت حقيقي للثورة الإسلامية ضد الغرب وإسرائيل. ففي ثورة الخميني، كان العدو الشيطاني هو الولايات المتّحدة،، والإتحاد السوفياتي. وقد تكون جاذبية الخميني هي الأقوى بين الشيعة في لبنان، البحرين، العراق والمحافظة الشرقية للعربية السعودية، إلا أنّ مثاله وجد صداه أيضاً في العالم السني. فليس مصادفة أن يقوم الإسلاميون السنة في غضون أشهر من نجاح الثورة الإيرانية بالسعي للإطاحة بالرئيس المصري الأسبق أنور السادات في القاهرة. وفي حين أنّ إغتيال السادات لم يكن بتوجيه إيراني بأي حال من الأحوال، فإنّه من المثير للإهتمام أن تقوم إيران الخمينية، في العام 1991، بإعادة تسمية بولفار رئيسي في طهران، بعد عملية الإغتيال، بإسم خالد إسلامبولي تكريماً له. كما أن ليس مفاجئاً أن تعيد إيران تسمية الشارع نفسه بشارع الإنتفاضة في العام 2001 عندما شكل ذلك عائقاً أمام إستعادة العلاقات الديبلوماسية الإيرانية– المصرية في ذلك الحين، أي عندما كانت إيران لا تزال تسعى الى نيل تأييد العالم الإسلامي السني الواسع.

وفي العام الماضي، وفي بداية نجاح حزب الله ضد جيش الدفاع الإسرائيلي، ركبت كل من إيران وحزب الله موجة الشعبية التي أدت إليها المعركة. وقد أظهر إستطلاع أجراه مركز إبن خلدون في مصر، الحصن الإسلامي السني، بأن حسن نصر الله (نسبة التأييد 82%) والرئيس الإيراني محمود أحمدي نجاد (73%) هما الشخصيتان الأكثر شعبية في العالم بالنسبة للمصريين. كما أنّ إستطلاعاً خارجياً أظهر بأنّ زعيم حماس خالد مشعل، الموجود في دمشق، قد نال 60% من الأصوات، كما نال زعيم القاعدة، أسامة بن لادن، 52%. ولم ينل أي زعيم سياسي عربي سني أي مرتبة من المراتب العشرة الأولى.

إنّ محاولة تقسيم المنطقة الى معسكرين، سني وشيعي، هي محاولة خاطئة لأسباب عديدة. بدايةً، إنّ هذه الإستراتيجية لن تغذي فقط الكراهية الطائفية، التي قد أخذت المنطقة الى "بوابات جهنم"، كما وصف الأمر مؤخراً أمين عام الجامعة العربية عمرو موسى.وإنما سيؤدي

الدفع أكثر بإتجاه التقسيم، ومن دون شك، الى إستحضار العنف الطائفي إلى المنطقة. وهذا الأمر سيكون لصالح أعضاء القاعدة الأكثر تطرفاً، ولصالح ورثة الأمير أبو مصعب الزرقاوي، الذين ساعدوا على إذكاء العنف الطائفي في العراق. وكان الزرقاوي قد إنتقد، بشكل لاذع وقاسٍ، الشيعة لتعاونهم مع الأميركيين في عراق ما بعد صدام. فبالنسبة له ولداعميه، يعتبر الشيعة "روافض"، وهي أدنى من أدنى طبقة، كما يعتبرهم عملاء للإمبراطورية البهلوية الإيرانية الكبيرة العائدة.

أما خليفة الزرقاوي، عمر البغدادي، فقد سبق ورحب بفكرة ضربة نووية أميركية على إيران بصفتها الطريقة الأفضل للتخلص من عدوين للقاعدة بقتلهما بعضهما البعض. على كل حال، لن يؤدي هذا الأمر الى تحريك كل المتطرفين السنة لقتال إيران. فالبعض سيفضل حليفه الإيديولوجي والإستراتيجي على الإنتساب الطائفي. إنّ الدليل الآتي من طرابلس، مجدل عنجر، العرقوب، صيدا وبيروت في لبنان يعرض الى أنّ هؤلاء لن يكونوا أقلية صغيرة، بل أنّ بعض أجزاء المجتمع السني اللبناني سيكون مستعداً للقتال كتفاً الى كتف مع إخوانه الشيعة، وستكون أميركا بمواجهة عاصفة كاملة تجعل عدد أكبر من المسلمين، حتى، ينحازون ضدها.

إنّ إستخدام مقاربة ما أكثر توازناً تفهم تعقيدات حزب الله بكل أبعادها، ستخدم أفضل المصالح الأميركية. أما مقاربة كهذه فيمكن البدء بها فقط عن طريق بدء المحادثات مع إيران وسوريا، حليفا حزب الله الإستراتيجيَيْن والدولتان الممثلتان اللتان ساعدتا، بشكل بارز وهام، الحزب الشيعي ليصبح القوة التي هو عليها اليوم.

بلال صعب: باحث مساعد في مركز صبّان لسياسة الشرق الأوسط في معهد بروكينغز.

بروس ريدل: زميل كبير مشارك في مركز صبّان لسياسة الشرق الأوسط في معهد بروكينغز.